الآراء الـواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

على هامش الصراحة

حكمة الفلاحة ودليل الجاموس

إحسان شمران الياسري

يتحدثون عن فطنة (فدعة) ابنة الفلاح الذي نزل في أرض شيخ (الخزاعل)، وكيف إنها كانت مثالاً للمرأة الذكية التي أعطت لأبيها مكانة كبيرة لدى الشيخ وأهالي المنطقة. وسوف أستعير حكاية من الحكايات العديدة التي يحفل بها تأريخ هذه الأسرة، حيث البطولة والشجاعة ورجاحة الرأي وتقديم المعروف لأهله..

يُحكى إن حاشية الشيخ ذكروا الفلاّح أمامه بالسوء، وإنه لا يميز الناس ولا يحفل بمقاماتهم.. فقرر الشيخ أن يُرسل ولده مع بعض الحاشية إلى الفلاح، بعد أن ألبسه وألبس الحاشية ثياباً رثّه وأظهرهم بأوضاع مزرية لكي لا يعرفهم أحد ولا يوقرهم!!.

وكان طريقهم لبيت الفلاح يمرّ بابنته (فدعة) وهي ترعى الجاموس، وعندها أرسلت (فدعة) أختها الصغيرة على جناح السرعة إلى والدها تطلب منه إكرام الضيوف بأفضل ما يمكن لأنهم من علية القوم وأجاويدهم..

ولما وصلوا دار الفلاّح، وهو لا يعرفهم، احتفى بهم بأقصى ما يستطيع، وقدم لهم وليمة تليق بالملوك. وعندما عادوا إلى الشيخ وشرحوا له ما جرى لهم، عجب من الأمر وأرسل في طلب الفلاح للاستيضاح منه عن دواعي الاهتمام وهو لا يعرف الضيوف، ولم يكونوا بهيئة تدل على مواقعهم أو حالتهم.

فأجاب الفلاح بحكمة، وهي (ربّاطها) هذهِ الحكاية:

– إن الجاموس عندما يمرّ عليه عزيز قوم يرفع رأسه بطريقة تدلّ على الاحترام وعلوّ الموقع. وإن ابنته لاحظت جاموستها ترفع رأسها عند مرور (المحروس)، فأرسلت له على جناح السرعة للاحتفاء به.

ومن الحكاية إلى (ربّاطها).. إذ تخذلنا بعض المؤسسات أو المسؤولين أو القادة، عندما لا يستطيعون تمييز الناس الذين يعملون معهم، أو يتعاملون معهم. وبدلاً من أن يربطوا (جاموسة) في باحة المؤسسة لترفع رأسها احتراماً وتدلهم على النظيف والنزيه وطيب الأصل والمخلص والوطني، فإنهم يضعون عصابات ومنافقين وفاسدين يُطيحون بالشرفاء والمخلصين ويوفرون ملايين الذرائع لإثبات إنهم الأفضل وباقي الناس (كلهُ ترابُ)..

والدعوة لاقتناء الجاموسة مفتوحة لكل المستويات الإدارية والسياسية وقادة المجتمع، التي قد تجد أحيانا صعوبة في فرز الناس، حتى ننتهي برب الأسرة.. فإن لم نستطع تمييز الطيبين والمخلصين، فلنترك الجاموسة تفعل هذا.

ihsanshamran@yahoo.com

النظام العربي.. جدران هشّة لا تحتاج إلاّ لدفعة

مصر البطولة.. شعب السهل الممتنع

عوّاد ناصر

بانتقال الغضب من تونس الخضراء إلى مصر الكنانة لإسقاط نظام حسني مبارك (٨٢ عاماً) يكون شباب مصر (الجسم الأساس في انتفاضة مصر) قد تلقفوا الجمرة التونسية وتمسكوا بها لإحراق نظام الاستبداد والفساد في بلدهم.

ألم تشبع سيدي الرئيس من سلطة ونفوذ وجاه ومال وشهرة وقد تجاوزت الثمانين؟

أي شراهة سيكولوجية غير مفهومة تجعل من حاكم حكم بلاده ثلاثين عاماً وتجاوز سن التقاعد منذ زمن بعيد ولا يريد أن يتقاعد؟

لا يفقد الحاكم العربي الكثير من امتيازاته الكبيرة إذا تخلى عن كرسي الحكم وانتقل إلى كرسي التقاعد في بيته.. بل سيحظى باحترام الناس وتاريخ الدولة العربية التي ستسجل له إدراكه الحقيقة واحترامه نفسه لأنه غادر السلطة في سن الخرف الذي لا يؤهله حتى لقلي البيض، فكيف بقيادة دولة مركزية وارتكازية مثل مصر؟!

الناس تصيح بوجه الحاكم: لا نريدك لأنك قتلتنا وقمعتنا وجوعتنا وسلبت حريتنا وسرقت فرح أطفالنا وحرية بناتنا وإبداع مبدعينا، والحاكم يسمع ولا يستمع، وإذا استمع يدرج ما استمع له في خانة الخيانة والشغب والأيدي الغريبة التي تحاول العبث بأمن البلد، وهي النغمة المكرورة، المملة، المفضوحة، التي رددها، ويرددها، وسيرددها كل الحكام الدكتاتوريين الذين يوهمون الناس بأنهم يعيشون في جنة، وما أحداث الشغب سوى (أيد أثيمة) تحاول أن تعيث بالوطن فسادا.. جُملة سمعناها وقرأناها منذ الولادة.

ماذا جنى المصريون من السد العالي الذي جيشت له الجيوش ودبجت له الأغاني (نحنا بنينا وقلنا حنبني السد العالي) غير مئات القتلى من العمال الذين جرفتهم صخوره ورماله، ونسيهم التاريخ في غفلة آيديولوجية/إعلامية ولم يذكرهم بكلمة؟

ثورة مصر، وليس حركة احتجاج أو مظاهرات غضب حسب، تلخص الإبداع المصري الذي تستعيده ثقافة مصر وآدابها وفنونها ممثلاً بهذه الدهشة "الشعرية" التي تفاجئ قارئها عند قراءة القصائد العظيمة.

شعب مصر الأعزل يحاصر قوة الحاكم الغاشمة بلحمه الحي ودمه الأعزل، وقد تخطى طروحات السياسة التقليدية وتجاوز خطاب السياسيين الداعي للضجر، في الحكومة والمعارضة، حتى بات من الصعب على الفعّاليات السياسية الهرمة، في يمين ويسار مصر، اللحاق بأشواق الشباب وتوقهم الحار للحرية وهم يصرخون بوجه الدكتاتور: أرحل!

الأوراق لم تزل مختلطة في مصر رغم أن الرهان على ثورة الشباب يجعلنا مطمئنين إلى كسب الرهان، فهم لم يقبلوا بترقيعات حسني مبارك (التونسيون فعلوا الأمر نفسه) ونقلوا صراعهم إلى صفحات جديدة تجاوزت المطلبية العادية حتى بلوغ التغيير الجذري: حرية الوطن وكرامة المواطن.

زويل وعبد المجيد وشريهان

من تابع ردود أفعال وتعليقات وتحليلات المثقفين المصريين سيلمس حال الانفصال بين مثقف حكومي شهير، مولع بالمطولات والإكثار والانتشار، حيث تجده في كل صحيفة عربية، تقريباً، إلى الحد الذي يجعلك تتساءل: متى يقرأ وهو يكتب أربعاً وعشرين ساعة في اليوم؟

إنه جابر عصفور!

كان تعليقه على ثورة الشباب في مصر يدعو إلى الخزي وهو يطالب الثوار بالهدوء والعودة إلى بيوتهم، رغم أن الرئيس يحزم حقائبه، ونصف عائلته وصلت لندن، فهذا المثقف لم يزل يقف جباناً بين رصيف الثورة ومكتبه الوثير.

محمد زويل الشخصية العلمية العالمية (صاحب نوبل) كان من بين أفضل من تحدثوا، بوضوح رؤية وشهامة علمية، مطالباً برحيل الرئيس وتشكيل حكومة إنقاذ وطني تمهد لانتخابات حقيقية، بينما كان الإسلام السياسي العربي متناقضاً بشكل مريع، بل مخجل ومفضوح، ممثلاً بشيخ الأزهر، أحمد الطيب والشيخ القرضاوي.

الأول ساق النص تلو النص، لكنها نصوص الولاية الأبدية للجمود الإسلامي النصي الذي لا يخرج عن "وأطيعوا أولي الأمر منكم" لكن اللافت أن الفضائية المصرية وضعت مقتبساً من كلامه على شاشته، مكرراً، يقول: "سفك دم المسلم حرام شرعاً" وهو محق طبعاً، لكن كم من دماء المصريين سفكت على أيدي حكامها من دون أن يخرج علينا أزهري ليحرّم سفك دمائهم؟

أما الثاني فهو على نقيض صاحبه، وفق النصوص الإسلامية الجامدة ذاتها، فخرج "ثورياً" على يسار الثوار المصريين، بعد أن شخصت الآيديولوجيا خطاباً سياسياً، شعبوياً، فضائياً، يطالب برحيل الرئيس، رئيسه، وهو المدافع الشرس عن صدام حسين!

يا لفضيحة الإسلام السياسي العربي.. المفضوح أصلاً.

وحيد عبد المجيد، الباحث والمحلل المصري تقصى الشخصية المصرية وتحولاتها في العقود الأخيرة، وهو يشير إلى ظاهرة النهب والسلب التي ترافق، عادة، الثورات الكبرى، فقال إن هذه الشخصية جرى تشويهها فخرجت عن سياقها المصري المعروف بالدماثة والاستقامة بفعل القمع واستشراء الفساد والتجويع.. الإنسان محصلة علاقاته الاجتماعية.

إن مكوجي أزعر في القاهرة صار نجم الفن المصري الأول!

أما الفنانة المعتزلة، شريهان، فكانت من بين أروع من تحدّث عن الثورة الشبابية المصرية، بلغة على غاية البلاغة والوضوح (سهلة ممتنعة) بقلب ينبض مع قلوب شباب مصر وبعقل الفنان الواعي وهي تشير إلى صورة ذلك المصري (الغلبان) الذي سرق كرسياً فتصفه بسيكولوجيا مسرحية قائلة: كان ينظر إلى الكرسي بتأمل ويجرّب الجلوس عليه لأنه لم يجلس على كرسيّ في حياته!

بلدان مخربة وفاسدة، لا إعمار ولا تعمير، فالعمارات، خصوصاً، في القاهرة كثيرا ما سقطت على رؤوس ساكنيها، بسبب بناتها الفاسدين، والآلاف من المصريين حولوا المقابر إلى أحياء سكنية، ولا يأكلون وجبة ساخنة عدا ما يعتبرونه وجبة ساخنة وهو الخبز المغموس بالشاي!

بلدان متهرئة ومنخورة (دبي هي نيويورك مسلفنة، مستوردة، لا تمت إلى البيئة بصلة) وما زال الجهل والمرض والجوع ثلاثيا أبديّا يفتك بالناس بينما يعيش الحكام وعوائلهم وأصهارهم وأنسباؤهم وحراسهم ومتملقوهم من زعماء الكذب الثقافي الإعلامي ومهندسو خطبهم المزيفة وكلابهم المسلحة في أحسن حال.

وماذا تبقى من الثورة الجزائرية، بعد طرد الاستعمار الفرنسي سوى انتعاش إسلامي سياسي إرهابي، ودولة بيروقراطية مترهلة تعيد إنتاج البطالة مقنعة ومكشوفة؟

وفي ليبيا؟

الضابط الثوري التحرري الشاب، الذي ثار على سيده إدريس السنوسي لينقل ليبيا من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم، سمّى البلاد بـ "الجماهيرية العظمى" التي لم تجد فيها غالبية الليبيين حتى عظمة في صحونها الفارغة، وهي من بلدان الغنى الفاحش في المنطقة، بل العالم.. ذلك الشاب صار يحلم أحلاماً إمبراطورية حتى لم يكفه لقب ملك فسمّى نفسه "ملك ملوك أفريقيا"! في لحظة غرور بطرياركية بعد أن توهم بأنه أنقذ ملكه من غضب العالم لأنه دفع رشوة مالية هائلة لينقذ نظامه بعد جريمة لوكربي، أشهر جريمة إرهابية على مستوى إرهاب الدولة.

وماذا تبقى من شعارات وأهداف الأحزاب الوطنية، القومية المتعصبة، من الوحدة والحرية والاشتراكية ووعود عسكرتاريا الصمود والتصدي التي لم تصمد ولم تتصد لأيّ عدو خارجي بينما هم أسود كاسرة على أبناء شعوبهم الحزينة، الجائعة، التي لا تجد قوت يومها وثمن وقود مدافئها العتيقة لشراء المازوت بل لا يجدون حتى ثمن إعداد أشهر طبق شعبي بين أطباقهم الفقيرة: "المكدوس"..

وهل هي آخر القلاع العربية الاشتراكية المنخورة وقد التزمت حالة صمت موارب ومريب، إنه صمت المفزوع الموشك على الهاوية، بينما الناس فيها تضامنوا لفرط اليأس المحروس بأقسى أدوات القمع والخوف، لكن المفاجآت ليست ببعيدة مهما تصور حاكم القلعة العربية الاشتراكية بأنه بمنأى عن المفاجآت التي لا تخطر على باله أو بال أمثاله.

في اليمن يدعو الرئيس علي عبد الله صالح المعارضة للحوار داخل "المؤسسة" ما معناه أن يحاور الأسرى آسرهم داخل السجن، وهو أمر رئاسي رسمي بمنع أي تعبير عن الظلم في الشوارع والساحات العامة.. حيث تصرخ الجموع: ارحل، لا نريدك يا سيادة الرئيس.

في الكويت حوّل الأمير البلد إلى ديوانية لإطعام أبناء الشعب مجاناً، ويأله من كرم حاتمي.. هل رأيتم حاكماً يطعم شعبه بالمجان، ليسجل أكبر مكرمة في التاريخ العربي الحديث: توفير الطعام لشعب جائع بالمجان!

كأن الشعب ليس سوى معدة فارغة تريد من يملأها.

في الأردن ثمة تعتيم إعلامي على مظاهرات شعبية تطالب بإسقاط الحكومة القائمة، رغم أن إسلاميين أخوانجية، مثل ليث شبيلات، المؤيد الأردني الأبرز لصدام حسين، في قلب التظاهرات.

بلدان منخورة لا تحتاج إلاّ لدفعة.

وفي العراق تتصاعد حمى الطائفية، بطبعة رسمية هذه المرّة، من خلال إجراءات وقرارات تتخذها مراكز قوى حكومية نافذة، تشرعنها وتحرسها وتنظر لها قوى دينية رديفة، وكأن حملة صدام الإيمانية لم تزل تفرّخ بيوضها (بل استقام عودها) في المصرية، بلغة على غاية البلاغة والوضوح (سهلة ممتنعة) بقلب ينبض مع قلوب شباب مصر وبعقل الفنان الواعي وهي تشير إلى صورة ذلك المصري (الغلبان) الذي سرق كرسياً فتصفه بسيكولوجيا مسرحية قائلة: كان ينظر إلى الكرسي بتأمل ويجرّب الجلوس عليه لأنه لم يجلس على كرسيّ في حياته!

بلدان مخربة وفاسدة، لا إعمار ولا تعمير، فالعمارات، خصوصاً، في القاهرة كثيرا ما سقطت على رؤوس ساكنيها، بسبب بناتها الفاسدين، والآلاف من المصريين حولوا المقابر إلى أحياء سكنية، ولا يأكلون وجبة ساخنة عدا ما يعتبرونه وجبة ساخنة وهو الخبز المغموس بالشاي!

بلدان متهرئة ومنخورة (دبي هي نيويورك مسلفنة، مستوردة، لا تمت إلى البيئة بصلة) وما زال الجهل والمرض والجوع ثلاثيا أبديّا يفتك بالناس بينما يعيش الحكام وعوائلهم وأصهارهم وأنسباؤهم وحراسهم ومتملقوهم من زعماء الكذب الثقافي الإعلامي ومهندسو خطبهم المزيفة وكلابهم المسلحة في أحسن حال.

وماذا تبقى من الثورة الجزائرية، بعد طرد الاستعمار الفرنسي سوى انتعاش إسلامي سياسي إرهابي، ودولة بيروقراطية مترهلة تعيد إنتاج البطالة مقنعة ومكشوفة؟

وفي ليبيا؟

الضابط الثوري التحرري الشاب، الذي ثار على سيده إدريس السنوسي لينقل ليبيا من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم، سمّى البلاد بـ "الجماهيرية العظمى" التي لم تجد فيها غالبية الليبيين حتى عظمة في صحونها الفارغة، وهي من بلدان الغنى الفاحش في المنطقة، بل العالم.. ذلك الشاب صار يحلم أحلاماً إمبراطورية حتى لم يكفه لقب ملك فسمّى نفسه "ملك ملوك أفريقيا"! في لحظة غرور بطرياركية بعد أن توهم بأنه أنقذ ملكه من غضب العالم لأنه دفع رشوة مالية هائلة لينقذ نظامه بعد جريمة لوكربي، أشهر جريمة إرهابية على مستوى إرهاب الدولة.

وماذا تبقى من شعارات وأهداف الأحزاب الوطنية، القومية المتعصبة، من الوحدة والحرية والاشتراكية ووعود عسكرتاريا الصمود والتصدي التي لم تصمد ولم تتصد لأيّ عدو خارجي بينما هم أسود كاسرة على أبناء شعوبهم الحزينة، الجائعة، التي لا تجد قوت يومها وثمن وقود مدافئها العتيقة لشراء المازوت بل لا يجدون حتى ثمن إعداد أشهر طبق شعبي بين أطباقهم الفقيرة: "المكدوس"..

وهل هي آخر القلاع العربية الاشتراكية المنخورة وقد التزمت حالة صمت موارب ومريب، إنه صمت المفزوع الموشك على الهاوية، بينما الناس فيها تضامنوا لفرط اليأس المحروس بأقسى أدوات القمع والخوف، لكن المفاجآت ليست ببعيدة مهما تصور حاكم القلعة العربية الاشتراكية بأنه بمنأى عن المفاجآت التي لا تخطر على باله أو بال أمثاله.

في اليمن يدعو الرئيس علي عبد الله صالح المعارضة للحوار داخل "المؤسسة" ما معناه أن يحاور الأسرى آسرهم داخل السجن، وهو أمر رئاسي رسمي بمنع أي تعبير عن الظلم في الشوارع والساحات العامة.. حيث تصرخ الجموع: ارحل، لا نريدك يا سيادة الرئيس.

في الكويت حوّل الأمير البلد إلى ديوانية لإطعام أبناء الشعب مجاناً، ويأله من كرم حاتمي.. هل رأيتم حاكماً يطعم شعبه بالمجان، ليسجل أكبر مكرمة في التاريخ العربي الحديث: توفير الطعام لشعب جائع بالمجان!

كأن الشعب ليس سوى معدة فارغة تريد من يملأها.

في الأردن ثمة تعتيم إعلامي على مظاهرات شعبية تطالب بإسقاط الحكومة القائمة، رغم أن إسلاميين أخوانجية، مثل ليث شبيلات، المؤيد الأردني الأبرز لصدام حسين، في قلب التظاهرات.

بلدان منخورة لا تحتاج إلاّ لدفعة.

وفي العراق تتصاعد حمى الطائفية، بطبعة رسمية هذه المرّة، من خلال إجراءات وقرارات تتخذها مراكز قوى حكومية نافذة، تشرعنها وتحرسها وتنظر لها قوى دينية رديفة، وكأن حملة صدام الإيمانية لم تزل تفرّخ بيوضها (بل استقام عودها) في أعشاش الدولة الدينية وهي في طريقها إلى ولاية الفقيه!

الوطن؟

الوطن، حتى وطننا أيضاً، عاد إقطاعية شاسعة للصيد والنهب، ومصادرة الحريات الشخصية والعامة، وإعادة الوطن إلى عصور فقهية عمياء (لا أقصد الشيخ اليعقوبي، أبدا!).

العراقيّون، يشبهون المصريين: سهلون ممتنعون على طريقتهم الخاصة، وما حقب الخنوع والخوف والصمت، التي عاشوها لما يقرب من نصف القرن، سوى مرحلة استنفدت مفعولها، وهم الجديرون، أسوة بأي شعب حر، بالتغيير المنشود الذي ينقل العراق إلى صفحة جديدة، على أيدي أجيال شابة ناهضة، نظيفة الذاكرة، تتجاوز سرديات الراهن المتخلف، وأي سرديات أخرى، بيمينها ويسارها التقليديين النائمة في مذكرات العجائز.

الوطن؟

الوطن هو مؤسسات الحكومة بدءاً من القصر حتى الفندق السياحي، ومن يمسها بسوء فهو خائن ومشاغب ومتآمر على أمن الدولة، ومن أيتام صدام حسين.

الوطن ليس كرامة المواطن وحقه في حياة كريمة، بل هو كرامة الحاكم وحقه، وحده، في حياة كريمة، حتى لو كانت بلا كرامة تذكر.

لكن ثمة صورة أخرى، صورة اليوم العربية، صورة شعب الكنانة المدعاة للفخر والشرف، شعب السهل الممتنع، كما يطيب لي أن أسميه، حيثما حانت الفرصة، فهو البساطة التي تستجمع ضعفها الظاهري من قوتها الخفية، هكذا هو تاريخ مصر لمن عرفه، بدءاً ببناء أصعب العمارة وأقساها، إهراماته الخالدة، وانتهاء بالأغنية المصرية الشجية التي يجد كتابها وملحنونها ومطربوها تلك الحلول العجيبة لبنيتها الدرامية والعاطفية بمثل لمح البصر.

من علامات السهل المصري الممتنع هو موقف الجيش المصري الذي حمى الثوار من قمع قوات الأمن المركزي الذين تبخروا من ساحات وشوارع المدن المصرية، لكن القلق، قلق اللحظة، ينجم من خداع المؤسسة العسكرية التي عرفت بانقلاباتها المسلحة، فهل يتكرس العسكر حكاما جددا، خصوصاً بعد تعيينات مبارك رئاسة الحكومة (أحمد شفيق الضابط الطيار والمقرب الحميم من الرئيس المخلوع مبارك ونائب الرئيس (المخابراتي) عمر سليمان (المقرب الحميم من العائلة الحاكمة هو الآخر)؟

شخصياً، لا أتوقع ذلك، لأن ما قدمه الشعب المصري، حتى الآن، لن يقبل بأي رمز حكومي سابق، ولن يرضى بحكومة يقودها عسكريون.

إشكالات الأمن الثقافي
أسئلة في صناعة الدولة والهويّات والمجتمع

الاهتمام الإجرائي بصناعة المشهد الثقافي يمثل جوهر المسؤولية الضرورية والفاعلة في سياق البحث عن بناء أساسيات للأمن الثقافي، لان هذا الأمن يعتمد أساسا على بناء القاعدة التحتية المؤسساتية للثقافة بكل مستوياتها ونظمها، وضمان مقومات حقيقية مادية ومعنوية للحراك الثقافي واتجاهاته وحيازة القدرة على تعزيز الوعي بشروطه واستحقاقاته، من خلال التعاطي مع أسئلته والتعرّف على القوى الفاعلة في تأسيس وتكريس مظاهره، وذلك عبر تأمين مصادر لفاعلية التواصل والتفاعل بين منظومة القيم العامة التي تمثل أفكار وقيم الجماعات والمكونات في المجتمع، وبين الحاجة الى وجود بيئة تستوعب التعدد الرمزي المشترك لها في المعيش ضمن مجتمع واحد، تلك التي يمكن ان تكوّن بيئة عامة قابلة لتنظيم الفاعلية الاجتماعية للتشارك في فرص التحاور والانتماء والانفتاح الايجابي على بعضها البعض، مثلما هو دورها في صياغة الرسائل الثقافية، أي الرسائل التي تسند الاجتماع المتحقق داخل الأطر بما يمكن أن تعزز مشروع الدولة في سياق ما يتجلى من معطيات نظامها الاجتماعي الحافظ للتنوع والتعدد وفي سياق إنتاج المصدات التي تملك شروط القوة والصيانة القادرة على مواجهة العنف والإرهاب الذي يهدد شكل الدولة وهويتها.

علي حسن الفواز

(١-٢)

هذا التوصيف يفترض وجود القرائن التي يمكن ان يدعمها الوجود الفاعل للمؤسسات الثقافية المدنية الغائبة أصلا عن تاريخ الدولة الوطنية العراقية، إذ أن هذا الغياب أضعف وجود مظاهر للدور الثقافي العضوي، مقابل بروز قوى اجتماعية ودينية تمثل المرجعية القوية لمظاهر الثقافة والحكمة والعلم والفقه وغيرها.

هذا التوصيف المحدد لمفهومي الثقافة والمثقف أسهم في صناعة ظاهرة المثقف المعزول، والمثقف الحامل لوظائف سرية، إذ أن هذا المثقف المأزوم ظل طوال عقود يخشى قسوة السلطة، ويتجنب الاشتباك معها ومع تعقيدات تعاطيها مع الرسالة الثقافية، مثلما ظل متماهيا مع تاريخ إيهامي لمفهوم الحاكمية، والذي ظل ملتبسا الى مرحلة إنتاج ظاهرة الدولة السياسية والتي حملت معها الكثير من أمراض السلطة التاريخية القديمة.

ظاهرة الدولة السياسية اصطنعت لها طوال تاريخها وجها خاضعا لنوع من السادية في مجال توظيفها مفاهيم الثقافة والسياسة والاجتماع، ولتحديد دور معين لفاعلية المثقف في سياقها. إذ أن هذا الاصطناع سينعكس قسريا على أداء المؤسسة الثقافية الخاضعة أساسا للسلطة، وعلى كفالة أي شكل من اشكال القيمة المعنوية والنقدية التي يمكن ان تحوزها الصناعة الثقافية، لان إنتاج أية ظاهرة مخالفة يعني البحث عن دور فاعل وحقيقي لفاعلية السياق الثقافي والمجتمع والدولة ذات الأثر الكبير على إنتاج الظواهر الثقافية.

إنتاج الظواهر الثقافية الخارجة عن السياق التاريخي للسلطة، يمثل تغايرا في توصيف الوظيفة الثقافية، أي الكشف عن استعدادات لوجود إمكانية لإنتاج ادوار فاعلة لأجهزة أخرى في السياق الثقافي والتي يتداخل فيها عمل مؤسسات مدنية وقوى معارضة، فضلا عن أعمال لجهات رقابية في المجتمع، وبما يجعل ادوار هذه المؤسسات مؤثرة على تنامي وتراكم فاعلية الوظائف الثقافية في مواجهة إشكالية النسق الثقافي التقليدي وتجاوز عقدة نقد ومراقبة السلطة ذاتها، وطبائع القوى المنتجة للعنف-العنف المضاد للسلطة-، لان إيمان السلطة(صانعة القرار) بطبيعة هذه القوى يعني إبرازها على مستوى توجيه آخر للرأي العام والعمل على امتصاص أية قوة للضغط والمواجهة، وبما يجعل الانماط الثقافية الجديدة امام الانخراط في نسق آخر، يواجه السلطة ذاتها، ويواجه في الآن نفسه الأشكال الثقافية المغايرة، والتي تحولت من أشكال للمعارضة والاختلاف إلى أشكال منتجة للإرهاب والعنف والتطرف والتكفير وكراهية الآخر.

×الأمن الثقافي..إشكالية التاريخ، وعقدة التوصيف×

يكتسب معنى الأمن الثقافي بعداً تراكمياً من خلال الأدوار التي يؤثر فيها، لإنه يعني جانباً إنتاجياً للمادة الثقافية من جهة، وجانباً حمائيا من جانب آخر لهذه المادة، ومن هذا المنطلق فان الامن الثقافي يشكل التعبير المفهومي للدفاع عن القيم العامة، وعن الحريات وعن هوية الدولة او الهويات الثانوية ومنظومة الحقوق وغيرها. وهذا ما يضع مفهوم الامن الثقافي في مرحلة ما بمواجهة قضايا بناء الدولة، ومواجهة تحدياتها، ومنها تحديات الارهاب بكل توصيفاته، اذ يمثل (الارهاب انتهاكاً خطيراً للقانون الإنساني والدولي، والذي يعد وحسب منظمة العفو الدولية ومنظمة هيومن رايتس ووتش ومنظمة أطباء العالم العمليات الانتحارية التي تستهدف المدنيين في أي بقعة من العالم ضمن جرائم الحرب او الجرائم ضد الإنسانية) ١. فان الحاجة الى ضرورات الامن الثقافي ترتبط بالحاجة الى إبراز الدور القيمي والاخلاقي للثقافة، وإبراز أهمية المواثيق الحقوقية والقيمية التي تنظم عمل الفاعليات الثقافية ومنها ما يتجوهر في إطار عمل وسائل الاعلام وصناعة رسائلها الثقافية والأخلاقية الموجهة الى جماهير مستهدفة، والمطالبة بأهمية الالتزام بهذه المواثيق، لان ما يحدث من خروقات إعلامية في صناعة الرسالة وفي بث محتواها الثقافي، وما ينعكس من خلالها من تشويش على طبيعة توصيف الأمن الثقافي، يعبر عن خلل بالمعاني القيمية والقانونية للتعاطي مع المواثيق والاتفاقيات واللوائح، ويتيح لجماعات واجندات معينة، بما فيها الجماعات التي تتبنى التوجهات الإرهابية والعنفية الى استغلال وسائل الإعلام للترويج لرسائلهم الثقافية القائمة على إشاعة فقه العنف والقوة المفرطة وشحن الكراهية والعدوان. ولعل المشهد العراقي من أكثر المشاهد حيازة على سلوكيات للخرق المهني والقيمي في صناعة الرسالة الإعلامية، فهناك العديد من وسائل الاعلام الوطنية والعربية تمارس دورا وظائفيا فادحا في التشجيع على صناعة رسائل اعلامية تقوم على الانحياز الى توجهات معينة تشجع على ثقافة الكراهية والطائفية، والتشويش على المعاني الأخلاقية للأمن الثقافي الوطني الحافظ لفاعلية الحوار بين المكونات العراقية.

انطلاقاً من هذا التوصيف نجد ان تنظيم الرسالة الإعلامية على وفق المعايير المهنية والأخلاقية، يعني أساسا تفعيل ادوار ووظائف المؤسسات الاعلامية والثقافية، بوصفها مصدرا مهما في تأمين مصدر مهم من مصادر الأمن الوطني، وبالتالي المساهمة في صناعة رأي عام اكثر فعالية في ضغطه على مواجهة تداعيات البيئة الإعلامية والثقافية المروجة لخطاب العنف والتكفير والإرهاب، وأحسب ان هذه المواجهة ستتيح مجالا واسعا لإمكانية تأمين مصادر بحثية وعلمية وموضوعية لفهم أسباب إنتاج ظواهر الإرهاب من قبل جماعات معينة لها اجندات إيديولوجية وفقهية، تنظر لمفهوم الإرهاب والعنف نظرة تعاطف من خلال تمثلهم نزعات ثقافية محددة في مرجعياتها، والتي تمثل خطا أستيهامياً للدفاع الثقافي النكوصي عن مفاهيم مفترضة للنمط معية للخطاب الديني والهوية والقيم والاخلاق بمواجهة عمليات منظمة لما يمكن تسميته بالغزو الثقافي. انبعاث بعض الاتجاهات التي تتبنى هذا الخط الاستيهامي، تؤثر على طبيعة الأمن الثقافي القائم على أساس حماية الدولة للثقافات التي تعبر عن هويات المكونات في مجتمع هذه الدولة، وهذا ما يجعلها بمواجهة دائمة مع طبيعة التحولات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تحدث في المجتمع، إذ أن انهيار النموذج التقليدي للسلطة وحدوث الكثير من الفراغات للأمن السياسي والأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي، وصولا الى اختلال معادلات الأمن الثقافي، مما اسهم في اصطناع نماذج تعويضية وطارئة للأمن، من خلال التماهي مع أنماط محددة لثقافات طائفية او قومية او دينية، والتي تعبّر في جوهرها عن وجود ازمة الواقع وتعقيداته، فضلا عن تصدع كبير في طبيعة العلاقة التشاركية بين قواه التاريخية، مقابل بروز قوة أخرى ذات طبائع سياسية تعبّر عن توصيف آخر لمعاينة أزمة(التقاطعات)السياسية الحادثة، التي تعبر عن فقدان القوى القديمة لمصادر ادوارها التاريخية في المجتمع والدولة وضعف دورها في التأثر على موجهات الأمن الثقافي الجديد، وهذا الدور الإشكالي يدفع بعض هذه القوى الى الاستعانة بقوى إقليمية او دولية، لتكون جزءا من أجندتها ومصالحها وحساباتها في تهديد الدولة الجديدة والضغط على ملفات أمنها الثقافي.

هذا التوصيف ترك الكثير من الآثار على ظاهرة الدولة الجديدة وهويتها وطبيعة علاقتها بقواها الاجتماعية والسياسية الفاعلة، مثلما ترك الأثر الثقافي على دعم تشكلات ظواهر سسيوسياسية او دينية، مثل ما يسمى ب(الإسلام السياسي) والذي تحول الى ممارسة خطابية ووظيفة لرسم ادوار معينة لقوى سياسية واجتماعية وحتى إيديولوجية، وطبعاً يتم عبر هذه الممارسة تنفيذ أجندة غير محددة الملامح لوضع الخطاب الإسلامي في سياقه الشرعي والإنساني والاجتماعي، مثلما هو وضع الخطابات النقيضة التي تصطنع لها أشكالاً معقدة من الاسلمة الأصولية المتطرفة التي تقوم على تكفير المذاهب والجماعات الاخرى، وإرهابهم تحت يافطة الخروج عن الأمة والملة. هذا التشاكل ينعكس على الجوانب المفهومية للدولة والحقوق والحريات والهويات، اذ يضع مشروعية فكرة الدولة الجديدة أمام التباسات شائكة في سياق تركيبها المنتج لثقافة الانتماء المشترك، والمنتج للثقافة الحمائية التي قد تواجه أنماطاً أخرى من الثقافات الشمولية الطاردة.

الإيمان بوجود الدولة الجديدة يعني الايمان بطبيعة هذه الدولة المدنية المركبة تقوم على أساس السيادة الكاملة، ووجود البيئة الصالحة، والرشاد السياسي فضلا عن وجود الدستور الدائم والمؤسسات والقوانين، ومنظومات الحقوق الحافظة لقوة الحريات والمؤسسات والقوانين، فضلا عن قيامه على أساس وجود التنوع والتعدد، بما فيه تقبل تعدد الخيارات المذهبية والقومية والدينية ضمن سياقات واضحة للتشارك والحقوق والأدوار، وعدم إنكار أي دور للآخرين، ويعني أيضا التشارك في تنظيم فاعلية الدولة التي كانت خاضعة لمهيمنات وموجهات مركزية على مستوى القوة السياسية والإيديولوجية والعسكرية، وعلى مستوى فرض أشكال محددة للفقه القانوني والفقه المذهبي، فضلا عن ان هذا التشارك يعني الانخراط الايجابي في النظر الى القوانين الدولية والجنائية في فرض نظام الاجتماع على الآخرين من منطلق إنتاج الدولة الوطنية الجديدة. الشروع في هذا الاتجاه يفترض التعاطي مع العديد من المسؤوليات البنائية والحمائية، وهذه المسؤوليات تتطلب أيضا ما يمكن تأمينه من تعزيز للبنى الثقافية ومؤسساتها على مستوى التعليم والتأهيل والإبداع، لكي تكون أسساً متينة لديمومة الإنتاج الثقافي الذي سيكون جزءا فاعلا في رسم ملامح هوية الدولة الجديدة وطبيعة توجهاتها وتحدياتها، والوقوف عند معطيات إنتاج خطابات خاضعة للمرجعيات القانونية للدولة، وبالاتجاه الذي يسهم في خلق مجالات تتسع للحوار، وتبادل المنافع الثقافية، فضلا عن دورها المؤثر على تفكيك السرديات التاريخية والفقهية للأيديولوجيا التقليدية التي صنعت لها طوال سنوات خطابات غائمة يتسم بعضها بالعنف المتطرف والتكفير، وبعضها يتمثل نزعات المثيولوجيا التي تستلب الكثير من مفاصل العقل الشعبي، والذي تم توظيف بعض أجنداته تعلاّ بالدفاع عن شكل معين للامن الثقافي. ومن جانب آخر فإن الغلو في توصيف هذا الامن الثقافي، يعطي فرصة للبحث عن تحالفات كبرى وذات بعد سياسي دولية وإقليمية تحت يافطة مواجهة العالم لتحديات وأخطار ما يهدد الامن الثقافي العالمي، والذي ترك آثارا مرعبة بدءا من احداث ايلول ٢٠٠١ في تفجيرات نيويورك وواشطن، وتفجيرات لندن ومدريد وما حدث في أفريقيا، وما ظل يهدد أيضاً دولا أخرى كالعراق وباكستان وأفغانستان ومصر وغيرها، وصولا الى ما يهدد الآن العديد من الدول الأوروبية ذاتها.

ان تعقيدات الأمن الثقافي باتت تشكل سلسلة طويلة من التداعيات، تبدأ من الاثر القرين باستحقاقات الدفاع عن صورة متعالية للحضارة الإنسانية وقيمها المدنية بمعنى خاص، وكذلك العمل تحت يافطة غامضة تسمى(المجتمع الدولي) لتحديد توصيفات وحدود معينة لخارطة العلاقات الدولية ولطبائع النمط السياسي الدولي، فضلا عن الحفاظ على المصالح والأسواق والثروات وانسيابية الخدمات الدولية، وطرائق الاستثمار العالمي للاقتصاديات العامة، وباتجاه يهدف الى تغليب التفسير الحداثوي الغربي الذي يتبنى دوافع الحياة لقوى معينة على دوافع الموت لقوى أخرى.